الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

مشروع "تحويل الفلسفة إلى تداولية ترنسندنتالية" عند كارل أوتو آبل*

The Transformation of Philosophy to Transcendental Pragmatics at Karl Otto Apel

د. محمد بوحجلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
akramaladin-2013@hotmail.fr

ملخص

يعد مشروع تحويل الفلسفة الترنسندنتالية إلى تداولية ترنسندنتالية للفيلسوف الألماني المعاصر كارل أوتو آبل من أهم المشاريع الفلسفية المعاصرة، وهو مشروع يندرج في إطار التحولات العميقة التي عرفتها الفلسفة في القرن العشرين، وقد سعى آبل في برنامجه هذا إلى العمل على إحياء وبعث الفلسفة الكانطية وتقديم قراءة جديدة لها وتحويلها إلى تداولية ترنسندنتالية وعلم رمزي، معتمدا في ذلك على الإفرازات التي خلفها المنعطف اللغوي لكل من بيرس وفنتجشتين وهيدغر، ويتأسس هذا البرنامج الفلسفي الجديد عند آبل على أربعة مراحل ستكون محور تحليلنا في هذا الموضوع وهي:

- التحويل السميوطيقي للفلسفة واللغة كمبدأ قبلي.
- اللغة كأداة للتواصل.
- اللغة التواصلية كحجاج.
- اللغة الحجاجية كالتزام إتيقي (أخلاقي).

الكلمات الدالة: كارل أوتو آبل؛ التداولية الترنسندنتالية؛ إتيقا التواصل؛ التأسيس النهائي.

Abstract

Transformation of transcendental philosophy to transcendental pragmatics of the contemporary German Philosopher Karl Otto Apel is considered one of the most contemporary philosophy projects. This project is involved in the deep changes that philosophy has ever known in the 20th century. Even Apel has set in his project this work so as to renew and give birth again to Kant philosophy, and present a new way of reading in order to transform it to transcendental pragmatics and science of codes relying on what linguistic turn has given as results to Peirce, Wittgenstein and Heidegger, for Apel, this project is based on four stages on which we will focus analysis in this issue (topic):

-Semiotic transformation of philosophy, the language as a priori.

-Language as communication.

-The communicative language as argument.

-The communicative language as ethical.

Keywords: *Apel Karl-Otto, Transcendental Pragmatics, Ethics of Communication, Ultimate Fondation.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

يعد الفيلسوف الألماني المعاصر كارل أوتو آبل (Karl-Otto Apel) من أبرز فلاسفة الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت المشهورة بـ « النظرية النقدية »، ويعد مشروعه الفلسفي "تحويل الفلسفة الترنسندنتالية الكانطية إلى تداولية ترنسندنتالية" من أهم المشاريع الفلسفية المعاصرة، حيث عمل آبل منذ إصداره لكتابه تحويل الفلسفة (Transformation de la philosophie)** سنة 1973 على بلورة وصياغة هذا المشروع وتطويره من أجل بلوغ تأسيس نهائي تداولي ترنسندنتالي للفلسفة (fondation ultime pragmatico-transcendantale)، وفي هذا السياق يقول آبل: « تحويل الفلسفة المتعالية التقليدية بمعنى جعلها فلسفة تداولية متعالية أو علم الرموز، ذلك هو برنامجي الحالي»[1]، فماذا يقصد آبل بمشروع تحويل الفلسفة؟ وما هي أهم المحطات التاريخية التي مرّ بها هذا المشروع؟ وفيم تتمثل مساهمة آبل فيه؟ وهل تعد هذه المساهمة استمرارا وامتدادا للعمل الذي قام به الفيلسوف الأمريكي بيرس (C.S.Pierce) في هذا المجال أو هي مساهمة تتميز بالتجديد والإبداع؟

أولا: مفهوم "تحويل الفلسفة"

غالبا ما يرتبط اسم كارل أوتو آبل مع هابرماس (Habermas) باعتبارهما الممثلين الأساسيين للجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، كورثة وخلفاء لهوركهايمر وأدرنو (Horkheimer et Adorno)، على الرغم من أنهما ليس تابعين لهما بصفة مطلقة بكل ما في الكلمة من معنى، فهذا التصنيف لا يعبر عن المشروع الخاص لآبل، لا بالنظر إلى علاقته مع الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت ولا بالنظر إلى علاقته مع هابرماس، فآبل له مشروع خاص على مستويين: المستوى الأول ويتمثل في محاولته تحويل الفلسفة في اتجاه التداولية الترنسندنتالية، والمستوى الثاني هو محاولته تطبيق هذا الإطار النظري الترنسندنتالي لأجل تطوير مفهوم جديد للإتيقا بعنوان "إتيقا النقاش" أو "إتيقا المسؤولية"، وهذا المشروع بوجهيه قريب من مشروع زميله هابرماس باعتباره نتيجة من نتائج التأثير المتبادل بينهما من خلال عملهما المشترك لعدة سنوات في مدرسة فرانكفورت، ولكنه مشروع أيضا يختلف عن مشروع هابرماس في عدة نقاط أساسية، خاصة فيما يتعلق بإمكانية "التأسيس النهائي" للإتيقا والفلسفة الذي دافع عنه آبل ورفضه هابرماس رفضا قاطعا[2].

إن تعبير "تحويل الفلسفة" كما ورد كعنوان لمؤلف آبل ينطوي على عنصر الغموض والالتباس، لأنه من جهة يشير إلى التحولات التي حدثت في الفلسفة عبر تاريخها الطويل، ومن جهة أخرى وبالنظر إلى المشروع النسقي لآبل بوصفه مقاربة تاريخية، فإن هذا العنوان يشير بصفة خاصة إلى التحويل الذي عرفته فلسفة القرن العشرين بالتأكيد خاصة على الدور الذي لعبه المنعطف اللغوي المعاصر، وهنا ركز آبل على تحليل ثلاث تيارات فلسفية أساسية تتمثل في تداولية فتجنشتاين (Wittgenstein) وتأويلية هيدغر (Heidegger) وسميوطيقا بيرس[3].

ففتجنشتاين الأول في "الرسالة المنطقية-الفلسفية" التي تمثل إحدى المرجعيات الأساسية للفلسفة التحليلية، أعطى للغة وظيفة إعادة إنتاج البناء المنطقي للعالم، وفتجنشتاين الثاني في "أبحاث فلسفية" ومن خلال نظريته "ألعاب اللغة" ركز على استعمال اللغة كما يحدث في مختلف مجالات الحياة اليومية، ويمثل التيار الثاني هيدغر الذي قام بإعادة صياغة الفلسفة في شكل هرمنيوطيقي جديد وراديكالي، كتتويج للتحالف بين الفينومينولوجيا والهرمنيوطيقا التقليدية، فا "الوجود والزمان" يبين أن أي مشروع إنساني ممكن بواسطة فهم مسبق يرتكز على الخطاب، وبعد "الوجود والزمان" انخرط هيدغر في التقليد الفلسفي الغربي المتعلق بفلسفة اللغة، وخاصة في تفكيره حول الشعر، وأما التيار الثالث فيمثله بيرس، مؤسس البراجماتزم الأمريكي، وواضع نظرية العلامات، فالبرجماتزم الأمريكي فتح الطريق أمام تأسيس فلسفة سميوطيقية، وسمح بطريقة ما بتأسيس علاقة بين الفلسفة التحليلية المقدمة من طرف فتجنشتاين والمقاربة القارية المقدمة من طرف هيدغر، وفي هذا السياق يرى آبل على سبيل المثال في آراء ريتشارد روتي (R.Rorty) وتوماس كوهن (T.Kuhn) شكلا أو نموذجا لهذا التقارب أو الالتقاء[4].

إن مفهوم "تحويل الفلسفة" يشير أيضا إلى المساهمة الخاصة لآبل في الفلسفة المعاصرة، والتي تتمثل في إعادة صياغة البحث الفلسفي من حيث أنه سميوطيقا ترنسندنتالية، ويتعلق الأمر عند آبل بإدراج وجهات النظر التداولية التي تجعل كل تفكير نشاطا بواسطة العلامات، وآراء فتجنشتاين الثاني التي أظهرت أن اللغة تحيل إلى مختلف أشكال الحياة الاجتماعية، في نظرية واحدة، كما قام بالتوفيق بين هذه الآراء وآراء هيدغر حول طبيعة الفهم لمختلف المؤسسات الإنسانية بواسطة اللغة التي يعتبرها "بيت الوجود"[5].

لقد جمع آبل في فلسفته بين المقاربة التاريخية التي تحدث فيها عن أبرز الوجوه في تاريخ الفلسفة والمقاربة النسقية من أجل بلورة وتطوير وجهة نظره الخاصة، هذه المقاربة المزدوجة التاريخية والنسقية أصبحت هي النموذج الفلسفي الخاص بآبل والمعروف بـ "التأسيس النهائي التداولي-الترنسندنتالي"[6].

إن تسليط آبل الضوء على مختلف آراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمنظرين اللغويين لم يكن القصد منها تقديم تعليقات وملاحظات نقدية لها، وإنما كان قصده من وراء ذلك أن يجعل من مختلف هذه المشاريع الفلسفية التي تحدث عنها خلفية لأطروحته الفلسفية الخاصة، أي أنه استخدمها من أجل تأسيس موقف فلسفي خاص به وتبريره، ويتمثل هذا الموقف الفلسفي في إعطاء بعد سميوطيقي لكل مشروع إنساني[7].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن المقارنات النقدية التي قام بها آبل تندرج في إطار أهم الإسهامات الفلسفية المعاصرة، وتحمل هذه المساهمة معنيين: من جهة يعد آبل من أوائل المفكرين الذين أدركوا إمكانية التقريب بين تياري الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية رغم التناقض الظاهري بينهما، ومن جهة أخرى يعد آبل من المهندسين الأساسيين الذين عملوا على بناء جسر للالتقاء بين هذين التيارين الفلسفيين وفتح فضاء جديد للنقاش الفلسفي، وهذا الفضاء سمح لجيل جديد من الباحثين على تجاوز الحدود التقليدية التي أرساها النقاش الفلسفي القائم[8].

إن هدف آبل من وراء المقارنات والمواجهات بين مختلف التيارات الفلسفية لم يكن هو محاولة إقامة توفيق تعسفي بينها، وإنما هو تأسيس برنامج فلسفي تندمج فيه المساهمات الهرمنيوطيقية والتحليلية معا مع حفاظ كل واحدة منهما على طبيعتها وخصوصيتها، والحفاظ أيضا على وجهة النظر الترنسندنتالية[9].

وفي هذا السياق قام آبل في الجزء الأول من عمله الأساس "تحويل الفلسفة" بتحليل أطروحتي نظرية ألعاب اللغة لفتجنشتاين وهرمنيوطيقا هيدغر، حيث حلّل بإسهاب مساهمة هذين الفيلسوفين في التحويل الفلسفي، وفي الجزء الثاني منه عمل على تحليل وتبرير مشروعه الفلسفي المعروف بـ "تحويل الفلسفة" [10].

ثانيا: أهم محطات التحول الفلسفي بعد كانط

تعد الفلسفة الكانطية حسب معظم المهتمين بالشأن الفلسفي على غرار بيرس وميشال فوكو (Michel Foucault) وكارل بوبر (Karl Popper) وآبل مصدرا لكل الفلسفات التي أتت بعدها، وذلك لأن كانط يعود له الفضل في تأسيس تقليدين فلسفيين كبيرين، ويتمثل التقليد الأول في وضعه سؤال الشروط الممكنة للمعرفة، وهو السؤال الذي ترتب عليه ظهور وتطور تيار فلسفي تحليلي نقدي للمعرفة، ويتمثل التقليد الثاني في وضعه سؤالا آخر حول التنوير، وهو السؤال الذي ترتب عليه ظهور وتطور تيار فلسفي أنطولوجي نقدي يعنى بالحداثة، وعلى هذا الأساس تكون كل الفلسفات بعد كانط إمّا امتداد واستمرارا أو تحويلا وتجديدا للفلسفة الكانطية.

وفي هذا السياق يرى آبل أن نقد هيغل (Hegel) لكانط يمكن اعتباره كأول تحويل للفلسفة الترنسندنتالية الكانطية [11] ، ولكنه رأى أن هذا النقد أدى إلى هرمنيوطيقا تاريخية لم تستطع أن تقدم بديلا نظريا وعمليا للمشكلات الأخلاقية والسياسية المطروحة في الفلسفة، ولذا دعا إلى البحث عن وساطة نقدية بين الإتيقا الترنسندنتالية والهرمنيوطيقا التاريخية لتحل محل التعارض بين الصورية الكانطية والجدلية التاريخية الهيغلية[12].

ومن أبرز التحولات التي عرفتها الفلسفة الكانطية من منظور آبل هو ذلك التحول الذي عرفته على يد الفيلسوف الأمريكي المعاصر تشارلس ساندرس بيرس والذي ذهب آبل إلى حد وصفه بـ "كانط الفلسفة الأمريكية"[13]، ووصف تداوليته بأنها تحويل لفلسفة كانط بعلم الرموز، ويعتقد آبل أن بيرس قام بتحويل ناجح للفلسفة الكانطية، لأن هذا التحويل ليس مجرد ترجمة لتاريخ الفلسفة الكانطية ولكنه إعادة بناء للمشروع الكانطي في سياق جديد[14]، ويعني هذا أن هذا التحويل ليس هدما للمشروع الفلسفي الكانطي الذي يبقى من أهم التقاليد الفلسفية تميزا وإثارة للمشكلات الفكرية وإنما هو بعث وتجديد له، وهذا ما أبرزه الباحث الألماني المعاصر ادموندس أبسالون (Edmunds Absalon) حين قال: "فلسفة بيرس يمكن فهمها كإعادة صياغة وتحويل لمنطق كانط المتعالي بعلم الرموز، ويؤيد هذا الفهم كثير من الباحثين الذين يعتبرون بيرس كانطيا محدثا، وبيرس نفسه يعتبر منطقه تحويلا لنقد العقل الكانطي"[15].

ومن القراءات الشهيرة للفلسفة الكانطية في الفترة المعاصرة تلك القراءة التي قام بها ميشال فوكو لنص كانط الشهير "ما التنوير؟"، ففي محاضرة ألقاها سنة 1982 تحت نفس العنوان "ما التنوير؟"، قام فوكو بإحياء نص كانط وإعادة قراءته، ومن المعلوم أن كانط عرف التنوير في نصه هذا بقوله: « هو خروج الإنسان من قصوره وضعفه وعجزه عن استعمال عقله...تشجع أيها الإنسان على أن تعرف، وكن جريئا في استعمال عقلك، ذاك هو شعار الأنوار »[16]، ولكن فوكو يرفض أن يكون التنوير "لحظة تاريخية" ويذهب إلى اعتباره سؤالا فلسفيا مركزيا مرتبطا بالحاضر، وبذلك يعطي للتنوير مفهوما جديدا باعتباره "موقفا فلسفيا" وليس "لحظة تاريخية"، وذلك لأن الآمال التي علقها كانط وغيره من فلاسفة التنوير على مشروع الحداثة في القرن الثامن عشر تبخرت، حيث تحول الوعد بالحرية والسيطرة على الطبيعة إلى استعباد من نوع جديد، وفي هذا يقول فوكو: « لست أدري إن كنا سنصبح أسيادا، فكثير من الأشياء في تجربتنا تقنعنا بأن الحدث التاريخي للأنوار لا يجعل منا سادة أو أننا لم نصبح ذلك بعد »[17].

وعلى العكس من فوكو فإن الفيلسوف الأنجلوساكسوني كارل بوبر يعد من أبرز الفلاسفة المعاصرين وفاء للفلسفة الكانطية ويصنف نفسه ضمن تيار "العقلانية النقدية"، وفي هذا يقول بوبر: « لست على الإطلاق رائدا لطريق جديد، أو مناد باتجاه جديد في الفلسفة كغيري من زملائي الفلاسفة ولكنني على العكس تماما فيلسوف يحمل اتجاها قديما تماما، فيلسوف يعتقد في فلسفة قديمة ومسبوقة، فلسفة عصر مضى [هو] عصر العقلانية و التنوير، فمن حيث أنني أمثل آخر فلاسفة العقلانية والتنوير... مثل كانط آخر فلاسفة التنوير العظام »[18].

ولا يمكن الحديث عن الفلسفة الكانطية وتحولاتها وامتداداتها دون الحديث عن فلسفة مدرسة فرانكفورت "النظرية النقدية"، حيث يرى بعض الباحثين المهتمين بشأن وأثر كانط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في المشروع الفلسفي لمدرسة فرانكفورت أن فلسفة هذه الأخيرة هي مجرد استمرار وتجديد للفلسفة النقدية الكانطية، فهي تستمد أصالتها من الفكر الكانطي لأنها رفضت كل دوغمائية وركزت على النقد وهذا على الرغم من أن معظم الدراسات المتعلقة بهذه المدرسة تعتبرها مدرسة ماركسية-هيغيلية، وفي هذا السياق يقول الباحث العربي محسن الخولي: « احتلت فلسفة كانط مكانة متميزة لدى فلاسفة النظرية النقدية [...] وذلك خلال مراحل بناءها وتطورها وإعادة بناءها [...] إن دعوة منظري مدرسة فرانكفورت إلى الفلسفة بوصفها إطارا جامعا للمعارف تمثل مواصلة للمشروع النقدي الكانطي [...] إن موقفهم المرن من المسألة الترنسندنتالية سيجد صداه العميق في كتابات هابرماس [...] ثم تتخذ هذه المسألة منعرجا حاسما من خلال المناظرة بين آبل وهابرماس»[19]، وإلى ذلك ذهبت الباحثة العربية أم الزين المسكيني حين قالت: « إن فكرة الفضاء العمومي عند هابرماس هي إعادة لصياغة فكرة السلام الدائم الكانطية »[20]، وعن تأثير كانط في فلسفة آبل تقول هذه الباحثة: « آبل هو صاحب إتيقا للنقاش تتأسس على المسؤولية، وهي رد فعل على نظرية هانس يوناس التي وجه فيها هذا الأخير نقدا شديدا لنظرية الأمر القطعي لكانط »[21].

وما يهمنا في هذا المقام خاصة هو موقف آبل الذي اشتغل على مشروع تحويل الفلسفة الترنسندنتالية إلى تداولية لسانية حتى قيل عنه هو « كانطي جديد، هو كانط مصحح ومنقح من طرف بيرس »[22]، وهو الفيلسوف الذي أكد في هذا المشروع على التأسيس النهائي للفلسفة والعقل والأخلاق، وقد عمل آبل على تقديم قراءة جديدة للفلسفة الكانطية معتمدا في ذلك على البرنامج السميوطيقي لبيرس، وهي قراءة تختلف عن القراءات الأخرى المتعددة لفلسفة كانط، وهي القراءة التي أصبحت مرجعية أساسية للنقاش الدائر في الأوساط الفلسفية الألمانية الراهنة، فما هي أهم معالم هذا المشروع الجديد أو هذه القراءة الجديدة؟

ثالثا: برنامج تحويل الفلسفة عند آبل

يتشكل برنامج تحويل الفلسفة عند آبل من 4 مراحل هي:

1- التحويل السميوطيقي للفلسفة، واللغة كمبدأ قبلي.

2- اللغة كأداة للتواصل.

3- اللغة التواصلية كأداة للحجاج.

4- اللغة الحجاجية كالتزام إتيقي.

1ـ التحويل السميوطيقي للفلسفة واللغة كمبدأ قبلي

يعتقد آبل أنه يمكن إعادة النظر في تاريخ الفلسفة على ضوء فلسفة اللغة، من خلال إبرازه لدور التحليل اللغوي ومكانته في الفلسفة الأولى في القرن العشرين، وفي هذا السياق ميز آبل بين ثلاث براديغمات عرفها تاريخ الفلسفة، البراديغم الأول تمثله فلسفة أرسطو التي ركزت على تحليل ماهية الأشياء والارتكاز على الأنطولوجيا[23]، بينما يرجع البراديغم الثاني في الفلسفة الأولى إلى ديكارت حيث أصبحت الفلسفة تعرف بأنها تحليل للشعور[24]، والبراديغم الثالث للفلسفة الأولى ظهر مع الفلسفة التحليلية من جهة ومع تطور الفلسفة التأويلية القارية من جهة أخرى، وهنا أصبحت الفلسفة تحليلا للغة[25].

وما يهمنا في هذا الموضوع هو البراديغم الثالث لأن مشروع "تحويل الفلسفة" عند آبل يندرج في إطار هذا البراديغم، حيث قام آبل بتحويل الفلسفة إلى فلسفة سميوطيقية، فكيف ذلك؟.

كما أشرنا سابقا فإن آبل يعتبر البراجماتزم الأمريكي العامل الوسيط في التقارب بين الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية، وفي هذا التحويل السميوطيقي ارتكز آبل على نظرية (السميوز) لشارلس موريس، وبحسب هذه النظرية فإن العلامة هي بنية ثلاثية، فهناك أولا علاقة تركيبية تربط العلامات ببعضها البعض، وهناك ثانيا علاقة دلالية تربط العلامات بالواقع، وهناك ثالثا علاقة تداولية تربط العلامات بالاستعمال، فالأشياء والعالم بصفة عامة، تبدو لنا وكأنها منظمة وفق هذا الرسم الثلاثي، وبهذا المعنى فإن الأفكار سميوطيقية بطبيعتها، حسب بيرس، الذي يرجع له الفضل في اكتشاف البعد التداولي لوظيفة العلامات[26].

ورغم أن آبل ارتكز على نظرية العلامات في العديد من القضايا الأكثر أهمية في الفلسفة، فإنه قام بإعادة صياغة هذه النظرية بشكل كبير، حيث اهتم خاصة بالرابطة الثالثة (المستوى التداولي) باعتبارها محور هذا النظام الثلاثي، حيث بين أن النظام الخاص لأي لغة في بناءه التركيبي والدلالي يمكن إدماجه مع تداولية التواصل في المجموعة التواصلية التي تستخدم هذه اللغة[27].

وهكذا يصبح في نظر آبل أن جميع معارفنا التي تدور حول العلامات مثل مشكلة المعنى والفهم، أصبحت كلها وبشكل حاسم فلسفة سميوطيقية، وهنا نجح آبل في إدماج الهرمنيوطيقا الهايدغرية وأيضا نظرية ألعاب اللغة لفتجشتاين الثاني في هذا المسعى[28].

2ـ **اللغة كتواصل**: وبعد أن قام آبل بتحويل الفلسفة إلى فلسفة سميوطيقية أراد الرجوع إلى الترنسندنتالية محاولا بذلك إحداث منعطف ترنسندنتالي، وهذا التحويل الترنسندنتالي يتأسس على ثلاثة مراحل، كل واحدة منها تكمل ما سبقتها وهي: اللغة كتواصل- اللغة التواصلية كحجاج- اللغة الحجاجية كالتزام إتيقي[29].

يرى آبل أن المرجعية السمانطيقية تتكون من عنصرين: عنصر داخلي يرتبط بالنظام الألسني وعنصر آخر خارجي يرتبط بالالتزام التداولي لمستعملي هذه اللغة في العالم، وهذا التمييز يقود إلى تمييز آخر في مفهوم اللغة، حيث يمكن أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تكون اللغة نظام سمانطيقي ودلالي خاص يؤسس لما يسمى اللغة الطبيعية، ويمكن أن تكون اللغة أيضا أداة تسمح للناس بالتعبير عن العالم من حولهم والتواصل مع الآخرين، والمعنى الأول للغة مستقل عن المعنى الثاني لها، ومثل هذا التمييز بين اللغة الطبيعية واللغة التواصلية هو أساس التمييز المشار إليه سابقا، إن مابين "الكفاءة اللسانية" باعتبارها قدرة على أن نتحدث لغة طبيعية محددة و"الكفاءة التواصلية" التي تسمح لنا بالإشارة إلى الأشياء وكل ما هو تداولي، تمييز بين اللغة كلغة طبيعية واللغة كقدرة لنتكلم مثل هذه اللغة والتواصل بها، وهو تمييز يجد الدعم في الثورة التي قام بها نعوم تشوميسكي (N.Chomsky) في إثباته لوجود نحو عام وعالمي للغة [30].

وبفضل تمييزه بين الكفائتين اللسانية والتواصلية، لاحظ آبل أن التبادل بين الثقافات يؤثر على العنصر السمانطيقي للغات، والمقارنة بين اللغات تكشف عن نظام سمانطيقي ونحوي خاص بكل لغة يختلف عن النظام السمانطيقي والنحوي للغات الأخرى، ومقارنة لغات الشرق الأقصى مع اللغات الأوروبية يثبت أن لغات الشرق الأقصى هي غير قادرة اليوم على التعبير عن المعطيات الهامة للحضارة التقنو-علمية، وأن أشكالها اللغوية العملية والدلالية غير متكافئة مع نظيراتها الأوروبية [31]، وفي هذا السياق أيضا يعتقد آبل أن ما يسمى "المجالات الحميمية" يصعب ترجمتها من ثقافة لأخرى بسبب اختلاف أشكال الحياة الاجتماعية [32]، ويرى آبل أن اللغات ليست معزولة عن بعضها البعض، بل على العكس من ذلك تفتح مبدئيا لأي مجموعة تواصلية إمكانية اندماج أعضاء جدد فيها، وباختصار فإن الكفاءة التواصلية تمنح للأفراد موقعا في العالم الحقيقي، بضمان مستويات أولية للتواصل، للتفاعل والاتفاق، والكفاءة اللسانية تسمح للأفراد بالتعبير بطريقة خاصة بالكلمات لتحقيق هذا التفاعل والاتفاق [33].

هذه الثنائية في الكفاءة التي تتميز بها اللغة يطرح نظرة جديدة لقبلية اللغة التي تم قبولها من طرف فتجشتاين وهيدغر وحتى من طرف البراجماتزم، أن اللغة ليست فقط "مؤسسة المؤسسات"(l'institution des) institutions كقبلية أو كبعد للعلاقات التي لا يمكن الإفلات منها أبدا قبل تكوين المعنى، إن اللغة أيضا هي مرحلة هامة تسمح بنقد أي شكل من أشكال الحياة أو أي مشروع إنساني باعتبارها ما فوق المؤسسات (méta-institution) لكل المؤسسات، وهذا من شأنه أن يمنح للغة والسميوطيقا مركز وضع الشروط الممكنة لكل معرفة وتسمح للسميوطيقا أن تحل محل الموضوع الترنسندنتالي ذي المرجعية الديكارتية والهوسرلية [34].

3ـ **اللغة التواصلية كحجاج**: إن اعتبار مكانة وأهلية اللغة كمؤسسة فوقية سينتج عنه تحويل ثاني لمفهوم اللغة، فالتحويل الأول يتوقف على تصور اللغة كونها أداة أساسية للتعبير عن بعض الأشياء وتوضيح للأخرى، فاستعمال اللغة هنا مرادف للتواصل، والتحويل الثاني يؤسس لاعتبار اللغة كأداة للتواصل عن طريق الحجاج [35] ، لأنه عندما أفكر في أشياء وأقولها أفترض أنني يمكن أن أفهمها، وافترض هذا الممكن لما أقوله، إذا كنت اعتقده، كل فعل لغوي صريح يعد انجازا لمطلب ما، وهذا الإدعاء هو نتيجة التزام من طرف المتكلم أو المتحدث، ويوضح آبل هذا الإدعاء أو النقد الافتراضي (critique virtuelle) بالاستناد إلى افتراضات وضعها عندما يتحدث عن مفهوم المجموعة المثالية للتواصل (communauté idéale) لأنني عندما أحاجج، أعرف بأنني عضو في مجموعة واقعية (communauté réelle) لمستعملي العلامات وأترجم هذه العلامات باعتباري أصبحت عضوا فيها بواسطة التنشئة الاجتماعية، فكل فرد يحاجج لا ينخرط فقط ضمن مجموعة واقعية ولكنه ينخرط أيضا ضمن مجموعة مثالية، تكون قادرة من الناحية المبدئية بشكل كاف على فهم معنى حجاجه والحكم بصفة نهائية على حقيقته[36]، وكل إطار حجاجي يتأسس على شرطين:

أولهما وجود مجموعة واقعية للتواصل، وثانيهما وجود مجموعة مثالية[37].

ولتوضيح فكرة أن استعمال اللغة هو في المحصلة تبادل للحجج، فإن آبل هنا مثل هابرماس، يرجع إلى نظرية أفعال اللغة التي قدمت نموذجا هاما ومقنعا في نواح كثيرة لإثبات أن كل قول هو فعل [38] ، فآبل وهابرماس استعارا هذا النموذج وقاما بتحويله إلى تداولية فلسفية، لأن الكلام يعتبر فعلا، والفعل لا ينطوي على مرجعية المجال الموضوعي الذي هو فضاء للحقيقة، بإحالتها اللغة كرؤية للعالم، بل يقتضي أيضا ضمنيا المجال الذاتي، لأن الكلام هو الفعل، والفعل يقتضي فاعلا، وموضوع الكلام يتطلب أيضا فاعلا في وضعية من خلال الكلام، ولكن الكلام أيضا يدخل في المجال المعياري، لأن المتكلم الفاعل ينخرط من خلال ما يقوله للآخرين في موضوع الفاعلين، فواقع الكلام يربط المجال الداخلي للتعبير من طرف المتحدث بالمجال الخارجي المرجعي للأشياء في العالم، وكذلك يربط المجال الاجتماعي المعياري للأفراد بمن يتحدثون إليهم [39].

باستخدام مفهوم "الإدعاء" ليحدد ما يحدث في أفعال الكلام، فإن آبل مثل هابرماس قام بتعديل مختلف العناصر التي سلم بها سورل (Searle) في نظريته أفعال الكلام وإعادة صياغتها وفق مفهوم الإدعاء، لأن ادعاء حقيقة ما يتطلب الحجة والدليل [40].

إن الأفضلية التي يمنحها استبدال استعمال اللغة بالمحاجة هي أنها تسمح بإقامة جدل بين المجموعة الواقعية والمجموعة المثالية للتواصل، فعلى الرغم من أن المحاجة تجد صلاحيتها في المجموعة الواقعية فإننا نبقى في حاجة إلى فهم ومعرفة ماذا يمكننا أن ندّعي، فنحن لا نقدم لعبة لغوية احتمالية تقع في فضاء زمني خاص، إن تقديم أي ادعاء مسبق من طرف أي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فرد يناقش ترنسندنتاليا المجموعة الواقعية حقيقة قائمة، ويمكن القول أن هذا هو الإطار الذي وضع فيه آبل أطروحته المتعلقة بالفهم البيناذاتي وشروط إمكانية استعمال العلامات من أجل كل فعل تواصلي[41].

4. **اللغة الحجاجية كالتزام أخلاقي**: إن فهم كل حجاج يفترض قواعد أو معايير مثالية في مجموعة تواصلية مثالية، وهذه الافتراضات تتعلق بتكوين إجماع حول معرفة العالم الواقعي بواسطة عمل تاريخي، وهذا يمثل عنصرا أخلاقيا، وهو ما يسعى إليه آبل في فلسفته ويسميه "التأسيس النهائي للإتيقا" (le fondement ultime de l'éthique)[42].

وفي هذا السياق، قام آبل بتحليل مشروعه الإتيقي في عدد من أعماله خاصة عمله الأساسي "النقاش والمسؤولية" (Discussion et responsabilité) حيث اهتم في الجزء الثاني من هذا العمل بوضع أسس ادّعاء الصلاحية في كل حجاج وأيضا في كل استعمال للعلامات بوصفها التزامات كحد أدنى للأخلاقية[43].

والملاحظ أن "إتيقا الحجاج" ليست أخلاق جوهرية تفرض على الأفراد سلوكات أو أفعال معينة، بل إن الالتزام الإتيقي هو محتوى حر لا ينطوي إلاّ على افتراضات ضرورية للحجاج في المجموعة[44].

ويمكن أن ننظر إلى مكانة "إتيقا النقاش" مقارنة مع "النظرية الأخلاقية" إذا طرحنا السؤال الآتي: "لماذا الإنسان أخلاقي؟"، وأخلاقيات المناقشة تريد أن تبين أننا لسنا في حاجة لاستخدام استنتاج منطقي أو اتخاذ قرار لا عقلاني، إنما يكفي فقط استخدام تقريبي للترنسندنتالية في الحجاج لمعرفة كيف نطرح السؤال في محله، حيث لا يخرج موضوع المجال المعياري عن السيطرة[45]. وبذلك يعتقد آبل أنه وجد التأسيس النهائي للإنسان الأخلاقي وأيضا للإنسان العاقل[46].

خاتمة

هذه إذن: هي أهم محاور مشروع آبل الفلسفي "تحويل الفلسفة" الذي حاول أن يثبت فيها أن اللغة تمثل بعدا قبليا كشرط لإمكانية أي تفكير أو إجراء عملي، وهنا استند آبل في تبرير موقفه على معطيات فلسفية أفرزها المنعطف اللغوي خاصة نظرية ألعاب اللغة لفتجنشتاين وهرمنيوطيقا هيدغر وبراجماتزم وسميوطيقا بيرس وموريس بدمجهما في فلسفة واحدة، أما الإضافة التي قدمها آبل في هذه المسألة الفلسفية فتتمثل في اعتباره أن قبلية اللغة تجعل لها مكانة كبعد ترنسندنتالي باعتبار اللغة تستعمل فقط من طرف أفراد مجموعة ما، واللغة كتواصل وقبلية تكشف إمكانية التفكير، وبهذا تفتح إمكانية تجاوز خاصية اللغة إلى خاصية المجموعة التواصلية، وهذا التجاوز يبين –حسب آبل– أن كل حجاج نستعمله وأن كل كلمة نتلفظ بها بطريقة مناسبة، وأيضا كل فعل يدّعي الوضوح، هي أمور مفصلية في لغة طبيعية داخل مجموعة تاريخية تفترض دائما مجموعة مثالية تعمل كمبدأ منظم، وهذا الافتراض المسبق يجعل المتحدث العاقل ينخرط ضمن معايير أخلاقية أولية، ويجعلنا نذهب إلى تطبيق النقاش والبحث عن الشروط الممكنة للنقاش كشروط تفكرية ترنسندنتالية يتضح معها أن اللغة شرط قبلي، وعندما نفكر بتعمق في اللغة كمبدأ قبلي نصل إلى تجاوز الحجاج: فادعاء الصلاحية يتبع التفكير ويكشف ما ينطوي عليه الحجاج، وإتيقا النقاش تؤدي إلى إتيقا المسؤولية وتسمح بتحديد محتوى المعايير الأخلاقية في مجموعة محددة وكذلك في المجموعة الكونية للإنسان.

الهوامش

* آبل كارل أوتو(1922-1917) Apel Karl-Otto، فيلسوف ألماني معاصر، من رواد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، يمثل ما يسمى بالتداولية الترنسندنتالية، من أهم أعماله: تحويل الفلسفة، إتيقا النقاش، النقاش والمسؤولية، الإتيقا والعصر الراهن للعلم وغيرها.

** تحويل الفلسفة Transformation de la philosophie ، هو أحد الأعمال الأساسية التي تعبر عن المشروع الفلسفي لآبل أصدره بالألمانية سنة 1973 في جزأين، ترجم الجزء الأول منه إلى الفرنسية سنة 2007 من طرف كل من C.Bouchindhomme و T.Simonelli و D.Trierweiler وترجم الجزء الثاني سنة 2010 من طرف مجموعة من المترجمين الفرنسيين تحت إشراف P.Vandevelde .

1-Appel Karl-Otto, Transformation de la philosophie 2, traduit sous la direction de Pol Vandevelde, édition du CERF, Paris, 2010, p 9 (Introduction du Pol Vandevelde).

2-Ibid, p p 9, 10.

3- Ibid, p 10.

4- Ibidem

5-Ibidem .

6-Ibidem

7-Ibid, pp 10, 11.

8- Ibid, p 11.

9- Ibidem.

10- Ibidem

11- Apel Karl-Otto, Discussion et Responsabilité 1, L'éthique après Kant, traduit de l'allemand par Christian Bouchindhomme et al, édition CEREF, Paris, p 43.

12- Ibid, p 67.

13- Apel Karl-Otto, Transformation de la philosophie 1, traduit par Christian Bouchindhomme et als, édition du CERF, Paris, 2007, p, 414.

14- Ibid, p 415.

15- أبسالون ادموندس، الموجز في راهن الإشكاليات الفلسفية، ترجمة أبويعرب المرزوقي، مرجع سابق، ص، 183.

16- كانط إيمانويل، ما التنوير، ترجمة محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، ط1، تونس، 2005، ص، 85.

17- فوكو ميشال، ما هي الأنوار؟، ترجمة حميد طاس، مجلة فكر ونقد، عدد5، 1998، (نقلا عن: www.ida2at.com/enlightenment-as-a-reflection-on-the-current) آخر زيارة 19-10-2017 على الساعة 00 :24.

18- بوبر كارل، الحياة بأسرها حلول لمشاكل، ترجمة بهاء درويش، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص، 166.

19- الخولي محسن، منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت، مجلة أوراق فلسفية، العدد 11، القاهرة، ص، (463، 472،465).

20- المسكيني أم الزين بنشيخة، كانط راهنا، المركز الثقافي العربي، الدار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البيضاء وبيروت، ط1، 2006، ص، 191.

21- المرجع نفسه، ص، 121.

22- Daniel Andler et al, philosophie des sciences I, Edition Gallimard, 2002, p, 188.

23- Appel Karl-Otto, Transformation de la philosophie 2, Op.cit., p 30 (Introduction du Pol Vandevelde).

24- Ibid, p 31.

25- Ibid, p 32.

26- Ibid, p 33.

27- Ibid, p 35.

28- Ibid, p 37.

29- Ibid, p 38.

30- Ibidem

31- Ibid, p, 39.

32- Ibid, p 40.

33- Ibidem.

34- Ibidem

35- Ibid, p, 41.

36- Ibidem

37- Ibid, p 41, 42.

38- Ibid, p 43.

39- Ibid, p 43, 44.

40- Ibid, p 44.

41- Ibid, p 44.

42- Ibid, p,52.

43- Ibid, p 53.

44- Ibidem

45- Ibid, p,54.

46- Ibidem

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com